من الأدب الهندى

عود الى محمد اقبال

للدكتور عبد الوهاب عزام

كتبت فى الرسالة عام أول طرفاً من أخبار شاعر الهند العظيم ، وفيلسوف الاسلام النابغة الدكتور محمد إقبال ، وترجمت نبذاً من ديوانه « بيام مشرق » . ولاقبال كتاب اسمه « أسرار خودى » ، وهو كتاب منظوم شرح فيه « أسرار خودى » أى أسرار الذاتية ، فبين بأسلوب شعرى رائق أن حياة الانسان والأمة فى تقوية النفس ، واستخراج كل مافيها من قوى ومواهب ، وأن الهلاك أن يغفل الانسان عن فطرته ، ويردد آراء الناس ، ويحاكى أعمالهم . الخ

ولاقبال كتاب آخر اسمه « رموز بيخودى » أى رموز اللاذاتية ، يبين فيه كيف يؤلف الانسان نفسه القوية فى الجماعة ساعياً الى المقاصد العامة . والكتابان منظومان فى بحر الرمل على القافية المزدوجة .

وسيرى القارئ فى هذا المقال وما يليه نبذاً من الكتابين ، على أن قارئ هذه الترجمة العربية المنثورة يفوته كثير مما يحس به قارئ شعر إقبال فى لغته .

وفيما يلى قطعة من أسرار خودى :

« قصة شاب من مرو ذهب الى السيد المعظم على الهجويرى [1] فشكا اليه مبلغ أحزانه عليه » :

سيد هجويرى قبلة الأمم الذى صار مرقده حرماً فى پيرسنجر ، جاب الأقطار ، وقطع سلاسل الجبال ، وبذر فى أرض الهنود بذور السجود ؛ فجدد عهد الفاروق بجماله ، ورفع صوت الحق بجداله ؛ عزت « أم الكتاب » بحماسته ، وخربت دار الباطل بنظرته ، وحيت أرض البنجاب بأنفاسه ، وتلألأ صبحنا بشمسه ، عاشق وهو رسول للعشق سيار ، تتجلى من جبينه للعشق أسرار .

أقص عليك من أنبائه عبرة ، فأطوى بستاناً فى زهرة :

ورد لاهور شاب من أهل مرو مرير القوى ، فأمّ حضرة السيد الرفيع ليقشع بشمسه ظلمات نفسه .

قال : ياسيدى أحاط بى الأعداء الفجار ، فأنا منهم كزجاجة بين أحجار ؛ فعلمنى ياذا السنا والسناء ، كيف العيش بين هؤلاء الأعداء .

قال المرشد العليم الذى ائتلف فى نفسه الجمال والجلال :

ياجاهلاً بأسرار الحياة ، وغافلاً عن مبدئها ومنتهاها ؛ افرغ من همّ غيرك ، وأيقظ القوة النائمة فى نفسك . إن الحجر الذى يتوهم نفسه زجاجة بين الأحجار ، ينقلب زجاجة غايتها الانكسار . ومتى ظن المسافر الضعف بنفسه ، فقدأسلم لقاطع الطريق روحه . حتّامَ تعدّ نفسك طيناً وماء ؟ أخرج من طينتك شعلة الطور ناراً وضياء . ما ذا التكبر على الأصدقاء ، وما هذه الشكاة من الأعداء ؟ لاريب أن عدوك صديقك ، وأن وجوده رونق حياتك . كل من وعى مقامات الذاتية يحمد الله كلما ألفى عدوه فى قوة . العدو من الانسان كالسحاب من الأرض ، يغشاها ، فيوقظ من سباتها قواها . وإن حجر الطريق لسيل كالماء ، أمام الهمة القعساء . وماالسهل والحزن أمام السيل المنهمر ، عقبة الطريق مِسَنّ لسيف العزم ، وقطع المراحل اختبار لهذا السيف ، ما العيش فى أكل ودعة كالحيوان الأعجم ؟ وما غناء الحياة وأنت فى نفسك غير محكم ؟ حصّن نفسك بالذاتية يسخّر لك العالم كله . تجرد من نفسك إن ترد الفناء ، واعتصم بنفسك إن تبغ البقاء . هل الموت إلا غفلة عن الذاتية ؟ وهل افتراق الروح والجسم إلا هذه المنية ؟ اتخذ من نفسك مستقراً لتنجو من الهلك ؛ ثم امض قُدُما ـ كيوسف ـ من الاسار الى الملك . تفكر فى الذاتية وكن رجل الجلاد السباق الى الغايات ، كن رجل الحق الملىء بالآيات . هأنذا أشرح بالقصص الأسرار ، وأفتح بالنفحات أكمام الأزهار . « خير أن يأتى سر الأحباب حديثاً فى قصص الآخرين » [1]

« قصة الطائر الذى أنهكه العطش »

بلغ العطش من طائر جهده ، فاضطرب نفسه موجة من الدخان فى صدره ، فأبصر فى بستان شذرة من الماس الوضاء ، فخيل اليه العطش أنها ماء . وخدعت الطائر المجهود هذه الشذرة المتلألئة

---

(١) أحد كبار الصوفية فى القرن الخامس الهجرى ؛ طوف فى الأقطار الاسلامية ثم استقر فى لاهور حيث مات سنة ٤٦٥ . وله مؤلفات فى التصوف أشهرها « كشف المحجوب »

(١) هذا البيت مقتبس من مولانا جلال الدين

كالشمس ، فتوهم الحجر الصلب ماء سائلا ، وغره من هذا الجوهر بريقه فضرب بمنقاره فلم تنقع غلته . قالت الماسة : أيها الطائر المسحور ! لشدّ ماضربت بمنقار الغرور ؛ لست قطرة من الماء ، ولا شربة للظماء ، ليست حياتي من أجل غيري . إن محاولة التقاطي جنون وغرور ، وغفلة عن الحياة الذاتية الظهور ، إن مأتى يكسر من الطير منقاره ، ويصدع من الانسان جوهر روحه .

خاب أمل الطائر فأعرض عن هذه الشذرة الوضاءة ، وانقلب الأمل فى صدره حسرات ، واستحالت أنيناً هذه النغمات . ثم بصر بقطرة من الطل على فنَنٍ من الورد ، تتلألأ كدمعة فى عين البلبل[1] ، ضياؤها استغراق فى حمو الشمس ، وهى من جوف الشمس فى رعدة . كوكب خفاق ولدته السماء ، فلبث لمحة فى نشوة الظهور والضياء ؛ وخدعته ألوان الأكمام والأزهار ، فلم يأخذ من الحياة نصيباً ، كدمعة العاشق العليل ، زانت الهدب لتسيل .

ويسرع الطائر الى فنن الورد فيلتقط قطرة الندى .

أيها المبتغى نجاة من الأعداء ! خبّرنى أجوهر أنت أم قطرة من ماء ؟ ألم تر الى الطائر حين أذاب العطش مهجته كيف وقى بحياة غيره حياته ؟ لم تكن القطرة فى صلابة الجوهر ، ولكن كانت الماسة صلبة المكسر . فلا تغفل عن حفظ الذاتية لمحة ، وكن قطعة ماس لا قطرة . كن ناضج الفطرة راسخاً كالجبال ، وتحمّل بحاراً من السحاب الهطال . وجِدْ نفسك بقوى نفسك ، واستحِل فضته بجمود زئبقك . أظهر نغمة الذاتية من أوتارها ، وتجلّ للناس بأسرارها .

« قصة الماس والفحم »

وهذا حديث آخر يفتح لك من الحقيقة بابا :

قال الفحم للماس وهما فى المعدن : يامن أودعت هذا التجلى الأبدى ! نحن رفيقان ، وفى المنشأ صنوان ، وهأنذا أموت فى معدنى ذلة ، وأنت تعلو تيجان الملوك عزّة ، وقدرى من سوء الجبلّة دون الحصاة ، وجمالك يصدع قلب المرآة . يضىء بظلمتى المجمر الوقاد ، فاذا غاية جوهرى هذا الرماد . منزلتى من الناس مواطئ الأقدام ، وغايتى أن أكون طعام النيران . إنها لحياة جديرة بالبكاء ، فما وجودى إلا هباء ؛ موجة من الدخان مركومة ، وأما أنت فكالنجم وجهك وسيمتك تفيض بالنور كل جوانبك . فأنت حيناً قرة عين قيصر ، وأخرى حلية فى مقبض الخنجر .

قال الماس : أيها الرفيق البصير إن التراب الأغبر اذا نضج فهو جوهر ، وأنا مازلت أجالد ماحولى حتى أنضج الجلاد نفسى ، فانقلبت صلباً كالحجر ، مضيئاً كالنجم ، وامتلأ صدرى بهذه التجليات . وأنت من حياتك النيئة ذليل ، محترق من رخاوة بدنك العليل ، فرّغ من الخوف والغم فؤادك ، وانضج كالصخر وكن ماساً بجهادك . فكل من جاهد فى الحياة صبوراً ، يملأ العالمين نوراً . إن الحجر الأسود كان تراباً بالتكريم غير خليق ، فصار حلية فى صدر البيت العتيق ، فاق الطور رفعة وصعّد ، حتى صار مقبل الأحمر والأسود .

إن فى الصلابة ماء الحياة وسر البقاء ، وإن فى النيوءة الهوان والضعف والفناء .

عبد الوهاب عزام

(١) البلبل فى الشعر الفارسى عاشق هائم بالورد

قلم خضير

بريشة ذهب عيار ١٤
مضمون ٣ سنوات
تستعمله الحكومات الشرقية
مكتبة ومطبعة خضير بشارع عبد العزيز بمصر